الفصل الثالث

الفصاحة وعلم الدلالة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصاحة وعلم الدلالة

يأتى حديثنا عن علاقة الفصاحة بعلم الدلالة فى مكانه المناسب ، فلقد سبق الحديث عن علاقتها بالأصوات ، وبقواعد النحو والصرف ، والتحليل اللغوى يجب أن يبدأ بالأصوات ثم بناء الكلمة ثم بناء الكلمات ، وينتهى بدراسة المعنى.

ودراسة المعنى هى الهدف الذى يجب أن يتوج به الدرس اللغوى، كما أن دراسة المعنى هدف لا يسعى إليه اللغويون فقط ، بل إنه غاية قد شغلت الكثيرين من من الباحثين فى مجالاتهم المختلفة مثل الفلاسفة ورجال القانون ورجال السياسة ، كما حظيت هذه الدراسة باهتمام علماء الأنثروبولوجيا ، ورجال الصحافة ، والنقاد ، والمترجمين .

ونستطيع أن نقول : إن علم الدلالة أو دراسة المعنى له علاقة بالبلاغة والفصاحة تفوق فى حجمها أية علاقة أخرى متصلة بأى فن أو علم آخر ، ويكفى أن نشير إلى الأبواب البلاغية الكثيرة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الدلالة مثل : الحقيقة والمجاز ، والمقام والمقال ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، الفصل والوصل . . . ، لكننا نؤثر التخلص من الاستطراد ونكتفى بإبراز الصلة التى بين الفصاحة وعلم الدلالة .

ونتساءل الآن : ما المجالات التى تجمع بين الفصاحة وعلم الدلالة ... ؟ .

توجد فى الحقيقة مجالات كثيرة نودّ أن نصنفها فى الهيكل العام الذى ورد فى أقسام الفصاحة ، ونعنى بذلك ، فصاحة الكلمة المفردة ، وفصاحة الكلام ، وفصاحة المتكلم ، أى تلك الأقسام التى استقرت عند البلاغيين المتأخرين .

ونبدأ فيما يلى بما يندرج تحت فصاحة المفرد :

أولا : العلاقة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة

ثمة علاقات عديدة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة يمكن أن نوضحها كما يلى :

١ ـ علاقة الأصوات أو الألفاظ بمعانيها:

من المسلم به أننا لا نستطيع أن نعزل الصوت عن معناه الملازم له ، ولو افترضنا أننا قادرون على عزله ، فإنه يتحول إلى صوت منغم يوحى بمعنى من المعانى . والصوت المسموع سواء كان مفهوما أم غير مفهوم — يكون مصحوبا بمعان أخرى نستوحيها من المتكلم ، بل أننا نضفى على ما نسمع معانى عديدة متعمقة فى داخلنا .

فالأصوات والمعانى شيئان متلازمان ، أى أن الأصوات — والإنسانية منها خاصة — لا بد أن توحى بمعنى ، والعكس ليس صحيحا لأن المعانى قد قد تستوحى من نواح كثيرة كالبصر ، والفم ، واللمس ، وغير ذلك .

ولقد مرت العلاقة بين الأصوات ومعانيها باعتقاد هام من جانب الباحثين اللغويين وغيرهم هو أن الأصوات أو الألفاظ يجب أن تكون مشاكلة لمعانيها ، وهو ما يعرف أو ما يقابل عند الأوربيين Onomatopoeia ويترجمها بعض الباحثين بـ (تقليد أصوات الطبيعة) وذلك كما فعل أستاذنا الدكتور محمود السعران[1] ويترجمها أستاذنا الدكتور ظاظا بـ « الألفاظ ذات الجرس المعبر »[2] كما أن بعض الباحثين يتحرج من ترجمتها ، وذلك مثلما فعل الدكتور ابراهيم أنيس فى كتبه ، ويترجمها الدكتور النويهى بـ « الحكاية الصوتية »[3] .

وقد تنبه اللغويون العرب إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين ، ولقد ذكر السيوطى أن عباد بن سليمان الصميرى قد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية .

ويورد السيوطى أن بعض من كان يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل : ما مسمى (إذغاغ) وهو بالفارسية الحجر ، فقال :

---

(١) الدكتور السعران : علم اللغة ص ٤٠٠ .
(٢) اللسان والانسان ص ٢١ .
(٣) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ص ٧١ .

أجد فيه بيسا شديدا ، وأراه الحجر[٤] .

ويورد السيوطى رأى من ينكر عليه هذا القول : « لأنه لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين ، كالقَرْء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود . . . » ، ويرى السيوطى أن الفرق بين مذهب أهل العربية ومذهب عبّاد أنه يرى المناسبة بين الألفاظ والمعانى ذاتية موجبة[٥] .

أما ابن جنى فإنه قد أفرد لهذه الظاهرة صفحات كثيرة ليدلل على أن هذه الظاهرة تستوجب الاهتمام ، واستهل حديثه فى هذا الباب برأى للخليل وآخر لسيبويه ، فيورد أن الخليل قال : « . . . كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر » .

وينقل عن سيبويه ما يؤكد هذه الظاهرة عندما قال : إن المصادر التى جاءت على (الفَعَلان) قد أتت وأفادت الاضطراب والحركة ، نحو النَّقَزان والغَلَيان والغَثَيان ، فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال[٦] .

أما ابن جنى فإنه قد أكد نظرته إلى هذه الظاهرة بعدة أشياء هى[٧] :

(أ) يرى أن المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير مثل : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والجرجرة ، والقرقرة .

(ب) المصادر والصفات على وزن (فعَلىَ) مثل : البَشَكى ، والجَلَزَى ، والوَلَقَى .

(جـ) تكرير العين فى المثال دليل على تكرير الفعل نحو : كسّر ، قطّع ، فتّح ، غلّق وتكررت العين لأنها أقوى من الفاء واللام فى نظره .

---

(٤) المزهـــر جـ ١ ص ٤٧ .
(٥) المزهـــر جـ ١ ص ٤٨ .
(٦) الخصـائص ص ٥٤٤ .
(٧) أنظر الخصائص باب « فى امساس الألفـــاظ أشباه المعـــانى » من ص ٥٤٤ : ص ٥٦٠ .

(د) تقطيع الفعل دليل على تقطيع معناه مثل : صرصر ، حفحق .

(حـ) تكرير العين واللام للمبالغة كما فى : دمكمك ، صمحمح ، عركرك ، عصبصب ، عشمشم .

(و) مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث : ويرى ابن جنى أن هذا باب عظيم واسع ، ونهجه مستقيم عند العارفين به ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها . ومن ذلك :

١ — (خَضِمَ) و (قَضِمَ) : فالخضم لأكل الرَّطب كالبطيخ والقِثَّاء وما كان من نحوها من المأكول الرطب .

والقَضْم لأكل اليابس نحو : قَضِمَت الدابة شعيرها[٨] .

ويستدل ابن جنى على رأيه هذا بالآثار المروية مثل : « قد يدْرَك الخضم بالقضم » أى قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف . ومثل قول أبى الدرداء : يخضمون ونقضم ، والموعد الله » .

ويرى ابن جنى أن العارفين بهذه الظاهرة هم الذين قد اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، واختاروا القاف لصلابتها لليابس ، حذوا المسموع الأصوات على محسوس الأحداث[٩] .

ويورد السيوطى :[١٠] القضم للفرس ، والخضم للإنسان ، وأن القضم بأطراف الأسنان ، والخضم بأقصى الأضراس .

٢ — النَّضْح للماء ونحوه ، والنضخ أقوى منه ، مثل قول الله تعالى :

---

(٨) نلاحظ أن الضاد تحولت الى طاء فى العامية المصرية « قطم » .

(٩) الخصائص ص ٥٥٠ ، ونلاحظ أن كلام ابن جنى هذا لا يخلو من التعسف لأنه ارجع وجود الخاء والقاف عند دلالتهما على المعانى السابقة الى العلماء العارفين لهذه الظاهرة فقط وكأنهم قد تعمدوا ذلك الاختيار فى بناء اللفظتين وفى رأينا أن العلماء لا ارادة لهم فى ذلك .

(١٠) المزهر ج ١ ص ٥١ .

، فيهما عينان تضاختان ، فجعلوا الخاء لخفتها للماء الخفيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه .

٣ — الصَّقَدّ طولا ، والصَّقَطّ عرضا ، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعا له من الدال ، فجعلوا الطاء للمناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال للمماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولا .

٤ — قرَتَ الدم ، و قرَدَ الشيء ، قرط يقرُط ، التاء فى نظر ابن جنى أخفت الثلاثة ، فاستعملوها فى الدم إذا جف ، لأنه قصدٌ ومستخف فى الحس عن القرود ، الذى هو التباك فى الأرض ونحوها ، وجعلوا الطاء وهى أعلى الثلاثة صوتا (للقرط) الذى يسمع ، وقَرِدَ من القِرْد وذلك لأنه موصوف بالقلة والذلة .

٥ — الوسيلة والوصيلة : الصاد أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها اتصال الشيء بالشيء ، وملامسته له ، وكونه فى أكثر الأحوال بعضا له ، كاتصال الأعضاء بالإنسان ، والتوسُّل معنىً يضعُفُ ويصْغُر أن يكون المتوسل جزء أو كالجزء من التوسَّل إليه وهذا واضح . فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها للمعنى الأضعف .

٦ — صَعِدَ وسَعِدَ : فجعلوا الصاد لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى ، وهو الصعود فى الجبل والحائط ونحو ذلك ، وجعلوا السين لضعفها لما لا يظهر أو يُشاهد حساً ، إلا أنه مع ذلك فيه صعودُ الجَدِ ، لا صعود الجسم .

ومن ذلك أيضاً سدّ وصدّ ، فالسد دون الصد ، لأن السد للباب يُسَدّ والمَنْظُرة ونحوها ، والصدّ جانب الجبل والوادى والشعْب : وهذا أقوى من السد الذى يكون لثقْب الكوز ورأس القارورَة ، ونحو ذلك ، فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى ، والسين لضعفها ، للأضعف .

ومن ذلك القسم والقصم ، فالقصم أقوى فعلا من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا يشكاء أحدهما ، فلذلك خصت بالأقوى الصاد ، وبالأضعف السين .

(ز) قد يضاف إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها بالترتيب ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب ، مثل كلمة (بحث) ، ويرى ابن جنى أن الباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء فيها تشبه مخالف الأسد وبرائن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض ، والثاء للنفث ، والثبث للتراب[١١] .

ومن ذلك « شد الحبل ونحوه » ، فالشين بما فيها من التفشى تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجذب ، وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالدال التى هى أقوى من الشين لا سيما وهى مدغمة ، فهو أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذى أريد بها ، أما الشدة فى الأمر فإنها مستعارة من شد الحبل ونحوه .

ومن ذلك أيضا « جر الشىء يجره » ، قدموا الجيم لأنه حرف شديد ، وأول الجر مشقة على الجار والمجرور جميعا ، ثم عقبوا ذلك بالراء ، وهو حرف مكرر ومكرر فى نفسه أيضا ، وذلك لأن الشىء إذا جر على الأرض فى غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعدا عنها ، ونازلا إليها . فكانت الراء أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف .

(ح) ما يسميه ابن جنى (تسميه الأشياء بأصواتها) كالخازباز لصوته ، والبط لصوته ، وغاق للغراب .

---

(١١) الخصائص ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

ومن ذلك :

* كالبحر يدعو هَيقَماً وَهيقَماً *

وذلك حكاية لصوت البحر .

(ط) كثرة اختلاط الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون بحرف الفاء تفيد غالبا معنى الوهن والضعف ونحوهما مثل[١٢] .

(الدَّالف) للشيخ الضعيف ، والشيء التالف .

و (الطَّليف) و (الظَّليف) : الجَبَانُ وليست له عصمة التمين .

و (الطُّنُفُ) : لما أشرف خارجا عن البناء وهو إلى الضعف لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل .

و (النَّطَف) : العيب ، وهى إلى الضعف .

و (الدَّنِف) : المريض .

و (التَّرْفة) : لأنها إلى اللين والضعف .

و (التَّطرَف) : لأن طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه .

و (الفرْد) . لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك .

و (الفَتُورُ) : للضعف .

و (الرَّفْث) : للمكسر .

و (الرَّدِيفُ) : لأنه ليس له تمكن الأول.

و (الطِّفْل) : للصبي لضعفه .

و (الطَّفَل) : للرخص .

و (التَّفْل) : للريح المكروهة ، فهى منبوذة مطروحة .

و (الدَّفْر) : النَّتْن ، وقالوا الدنيا (أمُّ دَفْر) سببٌ لها وتوضيع منها.

---

(١٢) انظر الخصائص ص ٥٥٧ ـ ٥٦٠ .

و (الفَلْتَة) : لضَعْفَة الرأى .

و (فَتْل المغزل) لأنه تثنّ واستدارة وذاك إلى وهى وضعف) .

و (الفَطْر) الشق ، وهو إلى الوهن .

وبالإضافة إلى هذا قد تعددت ملاحظات ابن جنى عن علاقة الألفاظ بمعانيها ونستطيع أن نوجز ذلك فيما يأتى :

لقد عقد ابن جنى بابا عنوانه « فى الاشتقاق الأكبر » وهو فى مقابل الاشتقاق الأصغر الذى يعرفه اللغويون ويقول ابن جنى : « الاشتقاق عندى على ضربين : كبير وصغير ، فالصغير ما فى أيدى الناس وكتبهم ، كأن تأخذ أصلا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه ، وإن إختلفت صيغه ومبانيه ، وذلك كتركيب (س ل م) فانك تأخذ معنى السلامة فى تصرفه نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة ، والسليم : اللديغ أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة ، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته ، وبقية الأصول غيره كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و (ز ب د) على ما فى أيدى الناس ، فهذا هو الاشتقاق الأصغر ، وقد قدم أبو بكر رحمه الله رسالته فيه ، بما أغنى عن إعادته لأن أبا بكر لم يأل فيه نصحا وإحكاما وصنعة وتأنيسا .

وأما الاشتقاق الأكبر : فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وأن تباعد شيء من ردّ بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد .[١٣] نحو : (ك ل م) (ك م ل) (م ك ل) (م ل ك) (ل ك م) (ل م ك) ، وكذلك : (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق). وهذا أعوص مذهبا ، وأحزن

---

(١٣) الخصائص جـ ١ ص ٥٢٦ ـ ص ٥٢٧ .

مضطربا ، وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة ، وتقاليب القول الستة على الإسراع والخفة[١٤] .

وابن جنى نفسه يتحفظ قليلا فى رأيه هـذا ولا يدعى باطراد مايسميه بالاشتقاق الأكبر ويقول فى ذلك « .. واعلم أنا لا ندعى أن هـذا مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر أنه فى جميع اللغة»[١٥] .

لكن ابن جنى يعود إلى علاقه الأصوات بمعانيها متحدثا عن الاشتقاق الأكبر وذلك فيما أسماه (باب فى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) ويرى أن اقتراب الأصلين الثلاثيين يؤدى إلى الاشتراك فى الدلالة مثل ضيّاط وضيطار ، ولوقة وألوقة ، ورخو ورخود ، وكذلك اقتراب الأصلين ثلاثيا أحدهما ، ورباعيا صاحبهُ ، أو رباعيا أحدُهما ، وخماسيا صاحبه مثل دِمث وَدَمثر ، وسِبَط وسِبَطْر ، ومثل دردب ودردبيس[١٦] . وهذا فى نظر ابن جنى يؤدى إلى الاشتراك فى الدلالة . كما يرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الكلمات التى اشتركت الأصوات بل يرى أنها تظهر فى الأصوات التى تتقارب مخارجها أو خصائصها الأخرى مثل : (الغدر) و (والختل) ومثل (السحيل) و (الصهيل) ومثل (جلف) و (جرم) ، ومثل (عصر) و (أزل)[١٧] .

ويورد السيوطى لصاحب الجمهرة مجموعة من الالفاظ تناسبت مع معانيها[١٨]

---

(١٤) الخصائص جـ ١ ص ٥٢٦ ـ ص ٥٢٧ .
(١٥) الخصائص جـ ١ ص ٥٣٠ .
(١٦) الخصائص جـ ١ ص ٥٣٧ .
(١٧) الخصائص جـ ١ ص ٥٤٠ ـ ص ٥٤١ .
(١٨) المزهـر جـ ١ ص ٥٢ ـ ص ٥٣ ـ ولأبى بكر ابن دريد كتاب « الاشتقاق » الذى حاول فيه أن يعلل الأسماء والأعلام الخاصة بالقبائل والامكنة محاولا أن يربط بين الاسماء المتقاربة فى عدد من أحرفها .
كما وضع ابن فارس معجما هو « معجم مقاييس اللغة » وقد أشرنا اليه فى صدر هذا البحث وحاول فيه أن يستنبط العلاقات بين الألفاظ ودلالاتها ، وهو يسلك سبيل ابن جنى لكن ابن فارس قد أسرف .

العطعطة : بإهمال العين هى تتابع الأصوات فى الحرب وغيرها .

والغطغطة بالإعجام : صوت غليان القدر وما أشبهه .

والجمجمة بالجيم : أن يخفى الرجل فى صدره شيئاً ولا يبديه .

والحمحمة بالحاء : أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل .

والدحداح بالدال : الرجل القصير .

الرحراح بالراء : الإناء القصير الواسع .

والجفجفة بالجيم : هزيز المركب وخفيفه فى السير .

والخفخفة بالخاء : خفيف جناحى الطير .

ورجل دحدح بفتح الدالين وإهمال الحاءين : قصير .

والجرجرة بالجيم : صوت جرع الماء فى جوف الشارب .

والخرخرة بالخاء : صوت تردد النَّفس فى الصدر ، وصوت جرى الماء مضيق .

والدَّردرة : حكاية صوت الماء فى بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتا .

والغرغرة : صوت ترديد الماء فى الحلق من غير مجٍّ ولا إساغة .

والقرقرة : صوت الشراب فى الحلق .

والهرهرة : صوت ترديد الاسد زئيرَه .

والكهكهة : صوت ترديد البعير هديرَه .

القهقهة : حكاية استغراب الضحك .

الوعوعة : صوت نباح الكلب إذا ردّده .

والوقوقة : اختلاط أصوات الطير .

والوكوكة : هديرُ الحمام .

الزعزعة بالزاى : اضطراب الاشياء بالريح .

والرعرعة بالراء : اضطرب الماء الصافى والشراب على وجه الأرض .

والزغزغة بالزاى وإعجام الغين : اضطرب الإنسان فى خفة ونزق .

والكركرة بالكاف : الضحك :

والقرقرة بالقاف : حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه .

والرفرفة بالراء : صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح .

والزقزقة بالزاى : صوت خفيف الريح الشديد الهبوب ، وسمعت زقزقة المركب إذا سمعت هزيزة .

والسغسغة باهمال السين : تحريك الشىء من موضعه ليقلع مثل الوتد وما أشبهه ومثل السنّ .

والشغشغة بالإعجام : تحريك الشىء فى موضعه ليتمكن ، ويقال شغشغ السنّان فى الطعنة إذا حركه ليتمكن .

والوسوسة بالسين : حركة الشىء كالحلى .

والوشوشة بالإعجام : حركة القوم وهمس بعضهم إلى بعض .

وشبيه بذلك ما جاء فى فقه اللغة للثعالبى ونقله السيوطى أيضا :

إذا انحسر الشعر عن جانبى جبهته فهو أنزع ، فإذا زاد قليلا فهو أجلح ، فإن بلغ الانحسار نصف رأسه فهو أجلى وأجله[١٩] .

والنقش فى الحائط .

والرّقش فى القرطاس .

والوشم فى اليد .

والوسم فى الجلد .

---

(١٩) انظر فقه اللغة للثعالبى والمزهر جـ ١ ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

والرشم على الخطة والشعير .

والوشى فى الثوب .

وجاء فى فقه اللغة للثعالبى أيضا[٣٠] .

الضرب بالراحة على مقدّم الرأس	: صَقع
وعلى القفا	: صَفْع
وعلى الخد ببسط الكف	: لَطْم
وبقبض الكفّ	: لَكْم
وبكلتا اليدين	: لَدْم
وعلى الجنب بالإصبع	وَخْز
وعلى الصدر والجنب	: وكْز ولَكْز
وعلى الحنك والذقن	: وَهْز ولَهْز

ومثل :

خَذَفَه بالحصى .

وحَذَفه بالعصا .

وقَذَفه بالحجر .

ومثل :

إذا أخرج المكروبُ أو المريض صوتا رقيقا فهو : الرَّنينُ

فإذا أخفاه فهو	: الهنين
فإذا أظهره فخرج خافيا فهو	: الحَنين
فإذا زاد فيه فهو	: الأنين

(٣٠) انظر فقه اللغة للثعالبى والمزهر ج ١ ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

فإن زاد فى رفعه فهو :الخنين

أما عن العلاقة بين الأصوات ومعانيها عند المحدثين فإن أهمها هو ما كتبه يسبيرين :

وترجع أهمية كتابات يسبيرين Otto Jesperson فى هذه الناحية إلى وجهة نظره التى تمثل موقفا وسطا بين أنصار المناسبة الصوتية ومعارضيها فلقد دافع عن (همبلت) Humboldt توفى سنة ١٨٣٥ أحد أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها ، وذلك عندما عارضه (مدفيج) Madvig توفى سنة ١٨٤٢. ويرى يسبيرسن أن (مدفيج) قد تجنى على (همبلت) لأنه لم يدّع أن مثل هذه الظاهرة تطرد فى كل كلمات اللغة . ويسبيرسن يميل لأصحاب المناسبة بين الألفاظ فى اللغات ، كما يرى أن بعض الكلمات التى تتمثل فيها هذه الظاهرة تزول منها مع الزمن . بينما تكتسب كلمات أخرى هذه السمة ، كما يرى أن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات ، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من الرمزية . ويأمل فى أن يأتى المستقبل باليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالتها أكثر وضوحا[٢١] .

ولقد قام عدد من الباحثين بإجراء تجارب عديدة للتعرف على مدى العلاقة بين الأصوات ودلالاتها.[٢٢] ونرى أن نتوقف عند واحدة منها ، هى تلك التى قام بها الدكتور إبراهيم أنيس بين بعض طلاب الكليات والمدارس ، وتتلخص هذه التجربة فى أنه قد عرض على مجموعة من طلبة الليسانس بكلية دار العلوم

---

(21) Language Its Nature, Development And Origin. Chapter x x . p p. 396 — 402 .

(٢٢) ذكر اللغـــوى الروسى فيجوتسـكى فى كتابه الذى ترجم الى الانجليزية ونشر فى الولايات المتحدة باسم Thought and Language عدة تجارب لعدد من العلماء حاولوا أن يربطوا بين الألفاظ ومدلولاتها فى أذهان سامعيها الذين يجهلون معانيها .

مجموعة من الكلمات النادرة المهجورة وطلب من كل طالب أن يسجل ما توحيه كل لفظة من دلالة فى ذهنه، ثم عرض هذه المجموعة نفسها من الألفاظ على مجموعة أخرى من طلبة التوجيهية، فى إحدى المدارس الثانوية ، وكان عدد المجموعة المختارة من طلبة الليسانس بدار العلوم أربعة وعشرين ، وعدد طلبة التوجيهية الذين قد أجريت عليهم التجربة ثلاثة وعشرين .

ومجموعة الكلمات التى عرضها على المجموعتين هى :

الهبلع ، الجرفاس ، الخيتعور ، النعثل ، القهبلس ، القذعملة ، الطربال ، الشنعوف ، العثلط ، القفندر (٢٣) .

وهذه الألفاظ مأخوذة من رسالة لأبى حيان التوحيدى كتبها فى الإنقاص من الصاحب بن عباد لموقف له من أحد الشعراء حين أنكر على الشاعر أن يتجرأ على قول الشعر ، وهو يجهل كثيرا من الغريب ، ثم سرد الصاحب للشاعر طائفة كبيرة من الألفاظ المهجورة التى يفخر بمعرفتها ، ومن تلك الألفاظ الكلمات العشر السابقة .

وقد رأى الدكتور إبراهيم أنيس فى تجربته أن يلمح لهؤلاء الطلبة بما يحصر تخمينهم فى نطاق محدود ، فذكر أن (الهبلع ، الجرفاس ، والخيتعور ، والنعثل) صفات للرجل .

وأن (القهبلس ، والقذعملة) من صفات المرأة .

وأن (الطربال) صفة للبناء .

وأن (الشنعوف) جزء من الجبل .

وأن (العثلط) صفة للبن .

وأن (القفندر) لواحدة من الجمال أو القبح .

---

(٢٣) دلالة الألفاظ ص ٧٩ ـ ص ٨٠ .

واستخلص الدكتور أنيس من تجربته النتائج الآتية :

١ — أن مجموعة الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد ، ويشتركون فى الثقافة والبيئة التعليمية قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠٪ فى المتوسط . والنسبة الباقية القليلة هى التى يمكن إرجاعها إلى التجارب والأمزجة الخاصة .

٢ — الدلالات المشتركة لم تكن دائما الدلالة المعجمية الصحيحة ، فلا تكاد تجاوز الإجابة الصحيحة ٤٢٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ أمر عسير حتى على الذين قطعوا شوطا من الثقافة اللغوية كأبناء دار العلوم .

٣ — استخلص الدكتور إبراهيم أنيس من التجربة السابقة أن الألفاظ التى يختزنها المرء فى حافظته لها أثر فى توجيه دلالات الألفاظ المتقاربة معها ، فإذا دل استقراء المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالى الفاء والجيم مثلا أكثر من توالى والفاء الصاد ، فقد يتصادف أن ما يحفظه المرء من ألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالى الفاء والصاد أكثر من توالى الفاء والجيم . ويقال حينئذ : أن توالى الفاء والصاد فى ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعا منه فى ذهن آخر ، ولكن الشخصين يخضعان معا للنظام العام الذى تجرى عليه ألفاظ اللغة . »[٢٤] وينتج عن ذلك أن تختلف نسبة شيوع المجاميع الصوتية فى ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ؛ فمجموعة مثل (ملع) تدعو إلى ذهن بعض الناس مجموعة مثل (دلع) وفى ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل (لمع) ولذا نرى أن (ملع) قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة (الدلع والميوعة والتخنث) وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة (اللمعان والبريق والضوء)[٢٥] .

---

(٢٤) دلالة الألفاظ ص ٨٥ .
(٢٥) دلالة الألفاظ ص ٨٥ .

ونستطيع أن نقول : إن التجارب التى تجرى فى اللغة ليس لها ما تتميز به من نتائج دقيقة محكمة مثل النتائج العملية التى تطرد ولا تتخلف ، لكنها مع ذلك مفيدة إلى حد كبير فى توجيه وخدمة البحوث اللغوية عامة والصوتية خاصة ، لكن ثمة بحوث فى الأصوات اللغوية تتميز بما للتجارب العلمية من نتائج دقيقة ، وذلك لدخولها فى الفيزياء واستعانتها بها .

لكننا نلاحظ أن الدقة العلمية التى تمتاز بها التجارب الصوتية قد لاتساعدنا فى دراسة الصلة بين الأصوات ودلالتها ، لأن الآلات المستخدمة تدرس الأصوات فقط ،أو تظهر مؤشرات تختص بالأصوات دون معانيها ومثال ذلك أننا لو استخدمنا فى دراستنا جهازاً علمياً مثل الأوسيلوجراف Oscillograph[٢٦] أو راسم الذبذبات فإننا ستحصل على خصائص صوتية مثل حدة الصوت وارتفاعه والزمن ،وغير ذلك من الخصائص التى يمكن أن توصف بها أية سلسلة كلامية أخرى، وهذا يعنى أن الدلالات أو المعانى تطرح جانبا فى المعامل الصوتية ، عند دراسة أو اختبار السلاسل الكلامية المختلفة فى الشعر والنثر ، وقد تدخل عوامل أخرى فى تلك الاختبارات فتغير الأثر أو النتيجة التى يخرجها الأوسيلوجراف مثل طريقة منشد الشعر مثلا ، أو الأداء الذى يقوم به المتكلم عند الالقاء ، ويمكن أن تتدخل عوامل أخرى كالضوضاء ، وهذه العوامل وغيرها تؤثر فى الذبذبات التى يتركها الاوسيلوجراف ، وربما دفعت هذه النتائج بعض الباحثين إلى أن يتصوروا أنهم قادرون على إيجاد الإيقاع أو الصوت بمعزل عن معناه ،وذلك كما زعم جورج ستيوارت G. R. Stewart عندما قال فى كتابه « تكنيك الشعر الإنجليزى The Technique of English Verse »[٢٧] ، النظم يمكن أن

---

(٢٦) الاوسيلوجراف هو جهاز يعطى آثارا كتابية تمثل السلسلة الكلامية التى يراد اختبارها ، والآثار الممثلة لأى سلسلة كلامية تتكون من عدد كبير من عناصر صغيرة غير متطابقة .
أنظر علم اللغة د. السعران ص ١١٦ .

(٢٧) نظرية الأدب ص ٢١٩ ـ تأليف رينيه ويليك وأوستن وارين ترجمة : د. حسام الخطيب .

يوجد بدون معنى ، وأنه مادام الوزن مستقلا استقلالا جوهريا عن المعنى فإن لنا الحق فى أن نحاول إعادة إنتاج البنية الوزنية لأى بيت بمعزل عن معناه كلية . ويقول صاحبا نظرية الأدب تعليقاً على رأى ستيورات : « . . . فإذا تجاهلنا المعنى تخلينا عن مفهوم الكلمة والجملة ، وتخلينا بالتالى عن إمكانية تحليل الفروق بين أشعار شعراء مختلفين ، فالشعر الإنجليزى يتعين إلى حد كبير بالتناغم بين التعبير المسبوك ، والدافع الإيقاعى ، كما أن الإيقاع الفعلى للحديث مشروط بتقسيم العبارات ، ولا يمكن الوثوق بتقسيم العبارات إلا على أساس التآلف مع معنى النظم . »[٢٨] ، كما يؤكد المؤلفان هذه الفكرة فى نهاية الفصل الثالث عشر : « إن الأوزان قد استعادت اليوم التماس الضرورى لها من اللغويات، ومع علم الدلالات اللغوية فى الأدب، ونحن نرى أن الصوت والوزن يجب أن يدرسا كعنصرين فى مجمل العمل الفنى ، وليس بمعزل عن المعنى . . . »[٢٩]

وما يردده المحدثون من ضرورة عـــدم الفصل بين الصوت أو الألفاظ والدلالات قد نبه عليه النقاد العرب منذ مئات السنين ، ومنذ أعلن الجاحظ أن المعانى كالأرواح ، والألفاظ كالأجساد ، ولا حياة لأحدهما بدون الآخر[٣٠].

ويعترف اللغويون فى النهاية أن الأدباء أقدر من غيرهم على ملاحظة الصلة بين الأصوات ومعانيها ، وأن مايدركونه من دلالات الأصوات غير واضح لغيرهم ، ويعتبر اللغويون أنفسهم غير مسئولين عن المعانى التى يضفيها الأدباء ، أو يدركونها من وحى الأصوات .

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٢١٩ .
(٢٩) المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٣٠) رسالة فى الجد والهزل ص ٨٥ تحقيق كراوس ـ الحاجرى .
وانظر رسالة الماجستير التى تقدمنا بها الى آداب القاهرة بعنوان « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ » فى الفصل الذى عقدناه عن اللفظ والمعنى والذى وفقنا فيه بين ما يوحى أنه يفضل الألفاظ على المعانى ، وهذه النصوص ص ٩١ ـ ص ١١٦ .

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : الشاعر ينتقى من الألفاظ ، ويتخير ويفاضل بينها ، ويميز بعضها على بعض متخذا فى نظمه البيت من الشعر لفظا خاصا بأبى غيره ، لأن أصواته توحى إليه مالا توحى أصوات غيره . . وأن الاستعمال الأدبى للكلمة فى شعر أو نثر يوثق على توالى الأيام بين الأصوات والمدلولات ، ولاسيما فى عبارات المشهورين من الأدباء التى قد تبلغ عند بعض الشعوب حد التقديس ، أما اللغوى فيأبى تقدير الظواهر اللغوية إلا فى ضوء أسسه العلمية من بحث الأصوات والصيغ وتراكيب الكلمات ، ويرفض تقدير اللغات على أساس ما ظهر فيها من آثار أدبية . .(٣١)

ومن الجدير بالذكر تلك الدراسة التى قام بها موريس جرامونت Maurice Grammont للشعر الفرنسى التى وصفها صاحبا كتاب نظرية الأدب بأنها أفضل وأدق دراسة للشعر الفرنسى فيما يتعلق بتعبيريته ، فقد صنف كل الحروف الصوتية والساكنة فى الفرنسية ، ودرس تأثيراتها المعبرة لدى الشعراء ، فوجد على سبيل المثال أن الأحرف الصائتة تستطيع التعبير عن الصغر والسرعة والرشاقة وماشابه ذلك . وقيل أيضا : إن هناك ترابطا بين الحروف الصائتة الأمامية (e,i) والموضوعات الرقيقة ، السريعة ، المشرقة والجلية . كما أن هناك ترابطا آخر بين الحروف الصائتة الخلفية (O,U) والموضوعات الثقيلة ، البطيئة ، السمجة المظلمة ، كل ذلك يمكن أن تثبته التجارب السمعية .(٣٢)

وقد نلحظ فى لغتنا العربية مايشبه هذه النظرة إلى الأصوات الصائتة الأمامية (e,i) مثل التصغير الذى يراد به التمليح ، أو الذى يراد به التصغير فقط ، مثل بعض الكلمات التى تجىء على وزن (فُعَيْل) و (فُعَيْعِل) و (فُعَيْعِيل)(٣٣)

---

(٣١) من أسرار اللغة ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٣٢) نظرية الأدب ص ٢١١ .

(٣٣) أشرنا فيما سبق إلى الزيادة فى بنية الكلمة وما يتبعها من زيادة فى المعنى ، أما الصوائت القصيرة فانها تقوم بتحديد الوظيفة فى الأسماء والأفعال المعربة ، كما تحدد النوع أيضا كما يحدث فى الكسرة التى تحدد المؤنث .

ومثل ما لاحظناه فى العامية عندما يراد الإفراد والتصغير ، نلاحظ أنه يضاف الألف والياء إلى المفرد فى اللهجة القاهرية مثل : (حبّاية) ، (لامونايه) ، (منجاية) ، (بلحاية) . . ويقصد بذلك حبة ، ليمونة واحدة ، ثمرة واحدة من المانجو ، ثمرة واحدة من البلح . .

وقد يقصد بهذه الإضافة فى العامية القاهرية أيضا التمليح والفكاهة مثل : بقراية ، جاموسايه ، ويراد بذلك كله إفراد المؤنث مع التصغير ، وغالبا ما يكون ذلك فى استعمال النساء والأطفال .

٢ ـ الغرابة وعلاقتها بأدوات الدلالة :

الدلالات أو المعانى تتخذ وسائل مختلفة حتى تظهر إلى الوجود ، وقد تكون تلك الوسائل أو الأدوات قائمة على الصوت أو الصيغ الصرفية ، أو التركيبات النحوية ، أو الدلالات المستمدة من المعاجم والقرائن المختلفة .

والدلالات التى تقوم على الصوت قد تكون كلمة أو نبرا أو تنغيما ، ولقد فصلنا القول فى هذه الوسائل أو الأدوات ، وذلك فى الفصل الذى عقدناه عن علاقة علم الأصوات بالفصاحة .

وتتضح الدلالات الصرفية المختلفة فى استعمال صيغة مكان أخرى مثلا ، مثل استعمال (فعّال) أو (فعُول) أو (فعِيل) مكان (فاعل) أو استخدام (فعِيل) بمعنى (مفعول) وغير ذلك .

ولعل الدلالة المأخوذة من المعجم هى أكثر الدلالات ارتباطا بفصاحة المفرد وذلك فيما يتعلق بالغرابة ، لأن معرفة الغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، كما أننا قد ذكرنا فيما سبق أن معنى الغرابة يختلف من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى أخرى ، كما أشرنا إلى ارتباطها بالأحداث الاجتماعية التى تترك أثرها على البحث العلمى ، ونستطيع أن نقول : إننا لا نستطيع أن نؤكد أن هذا اللفظ غريب

على وجه الاطلاق ، وإنما نقول : إن هذا اللفظ غريب علينا نحن أبناء العصر الحديث ، أو غريب على بيئتنا نحن أصحاب الثقافة الأدبية ، أو الفنية ، أو العلمية ، كما يمكن أن نقول : إنه غريب على أهل الحضر أو سكان المدن ، كما قد يكون غريبا على عصر دون عصر .

ونعود فنقول : إن معرفتنا للغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، وإذا كان الأمر كذلك فهل المعاجم اللغوية تفي بهذا الغرض . . . ؟

من المنتظر أن المتكلمين بلغاتهم الأصلية في بيئتهم لا يحتاجون إلى شرح الألفاظ المفردة ، لأن الألفاظ المفردة يجب أن تكون واضحة عند أصحابها ، وهذا بخلاف التراكيب التي قد يداخلها التعقيد والغموض . لكننا في الواقع نجد المتكلمين بلغاتهم الأصلية يتوقفون عند ألفاظ لغرابتها عليهم ، وعدم شيوعها بينهم ، ومن الطبيعي أن يحدث تراكم للألفاظ في أثناء نمو أية لغة خلال تاريخها ، وخاصة تلك اللغات التي حملت ألوانا من الحضارات المختلفة ، فكل حضارة تلازمها مجموعة من الألفاظ تحيا معها على ألسنة أصحابها ، ويصيبها النسيان والموت عندما تحل حضارة أخرى مكانها ، أو تصيبها الكوارث المختلفة بسبب الحروب ، أو كوارث الطبيعة كالزلازل والسيول . . . . وعندما يقوم الباحثون بدراسة فترة ما من حياة هذه اللغة أو تلك فانهم يواجهون بطائفة كبيرة من ألفاظ تلك الفترة المرتبطة بحضارة أهلها ، والتي تبدو لهم غريبة عن عصرهم وبيئتهم ، بل ربما تكون تلك الألفاظ الغريبة قد اجتمعت من عصور سابقة على تلك الفترة التي يستهدف الباحثون دراستها .

فلا مفر من مواجهة الغريب الذي قد تراكم في اللغة عبر تاريخها الطويل ، فكيف يواجه المتكلم الغريب في لغته . . . ؟

برزت الحاجة إلى المعاجم مع ظهور مشكلة الغريب عند المتكلمين ، لأن ذاكرة الإنسان لا تستطيع أن تستوعب كل المفردات مهما أوتي الإنسان من قدرة على

الاستيعاب ، لأن العمليات الاحصائية التى قام بها اللغويون تبين أن الإنسان المثقف المعاصر لايتجاوز مايستعمله من ألفاظ فى الكلام والكتابة والتأليف ، ستة آلاف لفظة ،بينما يزعم بعض المغويين أن اللغة العربية تضم أكثر من اثنى عشر مليونا من الألفاظ ، بالتحديد : اثنى عشر مليونا وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثنى عشر لفظا ، (٣٤) ونحن لانأخذبهذاالرقم ، لأن حصر مفردات لغة ما بالكلمة الواحدة أمر لايمكن تنفيذه بدقة ، لأن اللغة لاتتوقف عن الأخذ والعطاء ، والنمو والموات فى ألفاظها فى أى وقت من أوقات حياتها ، واللغة كجسم الكائن الحى يتجدد كثير من خلاياه ، وتموت الأخرى خلال فترة حياته بين الحين والآخر .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا عدة إحصائيات تبين نسبة المستعمل من الألفاظ إلى عدد مفرادت اللغة نفسها ، أو إلى مجموع مايضمه معجم ما ، مثال ذلك أن مجموع الناطقين باللغة الفرنسية لايستعملون بل لايفهمون مجتمعين إلا تسعة آلاف لفظة فقط من المادة اللغوية الفرنسيةالتى تصل موادها إلىمئات الآلاف .(٣٥) (معجم لاروس الموسوعى الكبير) يضم مالا يقل عن مائتى ألف لفظة ، و (معجم لاروس الصغير يضم أكثر من خمسين ألف لفظة فرنسية ، بالإضافة إلى المعاجم الفرنسية الأخرى .

فالحاجة إلى المعاجم لمعرفة معنى الغريب — كبيرة وماسة ، لأن اللغة أو المفردات اللغوية يجب أن تحفظ فى المعاجم ، والمعجم فى صورته النافعة يجب أن يكون كاملا شاملا . ويرى أستاذنا الدكتور ظاظا أن المعجم . . مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والعث من محتوياته ، إلى المفيد ، والأقل

---

(٣٤) انظر كلام العرب لأستاذنا الدكتور حسن ظاظا ص ١١٩ .
(٣٥) المرجع السابق ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

فائدة ، إلى الضرورى ، وما لا لزوم له ، إلى الثابت الأصيل والمشكوك فيه ، أو المزيف ، وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستعين به ، بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم ، وهو مسئول عن حفظ اللغة ، وعن تطويرها أيضا »[٣٦].

ومع ذلك فالمعنى الذى تعطيه المعاجم للفظة ما إنما هو المعنى الدلالى ، وهذا يختلف عن المعنى الجمالى الذى تحدده عوامل أخرى .

وبعد ، فإن المعانى التى تعطيها المعاجم للمفردات معان قاصرة وعاجزة عن إدراك المعانى المقصودة ، أى أن المعاجم العربية خاصة ليست كل شىء فى الوصول إلى معنى الكلام أو الكلمة ، لأن هناك عناصر كثيرة لها دور كبير فى تحديد المعنى ، وهذه العناصر قد تكون غير لغوية وإنما تتعلق بالمقام الذى قيل فيه الكلام ، كما تتعلق الكلمات أو الكلام بشخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب ، والجو النفسى المحيط بها .

وهذه العناصر التى تتدخل لتحديد المعنى الخاص بالكلمة أو الكلام مازالت المعاجم العربية تفتقر إليها ، ومن ثم فإن توضيح الظروف أو الجو الذى قيل فيه الكلام أمر لا يستهان به فى تحديد المعنى المراد ، لذلك وجدنا النقاد يختلفون فى لفظة ، أو جملة ، لأن المقام أو السياق الذى قيلت فيه كان غامضا ، وكذلك قد يختلف المفسرون وتتعدد آراؤهم فى لفظة ، كما يختلف المترجمون فى ترجمة لفظة من الألفاظ لعدم وضوح معناها فى أذهانهم ، أو لعدم وجود معنى مستعمل لها فى اللغة المنقول إليها ، وذلك لاختلاف البيئات الاجتماعية والحضارات المختلفة.

ونأمل جميعاً أن نرى معاجم للعربية مختلفة تسد الحاجة وتفى بالعرض ، وهذا يتطلب منا جهودا متضافرة لجماعات مختلفة الثقافة ، كالأدباء ، والعلماء واللغويين ، ورجال الفن والصحافة والسياسة ، لأن العبء الثقيل لا ينهض بحمله اللغويون فقط .

---

(٣٦) المرجع السابق ص ١٢١ .

ثانيا : علاقة فصاحة الكلام بعلم الدلالة

نستطيع أن نلاحظ من شروط الفصاحة التي حددها البلاغيون أن فصاحة الكلام ترتبط بدراسة المعنى أو الدلالة ارتباطا كبيرا ، ولقد تنبه إلى ذلك من قبل الشيخ بهاء الدين السبكي عندما رأى أن فصاحة الكلام يختص بعضها بالمعنى والبعض الآخر باللفظ ، فالخلوص من التعقيد المعنوي والضعف من اختصاص المعنى ، أما الخلوص من التنافر والتعقيد اللفظي فهما من اختصاص اللفظ(٣٧) .

فالتعقيد المعنوي وضعف التأليف يتصلان بدراسة المعنى اتصالا وثيقا في نظر السبكي ، لكن العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة لها مجالات متعددة ، وسنحاول أن نوضح ذلك فيما يلي :

١ ـ علاقة ضعف التأليف بعلم دراسة المعنى أو الدلالة :

من المسلم به أن وظيفة الكلمة داخل الجملة أو التركيب تتحدد بالإعراب الذي يبين بعلاماته المختلفة تلك الوظيفة ، ومع وضوح تلك الوظائف يتضح المعنى الناتج من التراكيب الصحيحة لتلك الكلمات ، أما إذا حدث خلل في تلك التراكيب بسبب الخطأ أو الضعف الذي قد يطرأ عليها ، فإنه ينتج عن ذلك خلل في المعنى أو غموض فيه ، قد تنتج عن الإبهام الذي أصاب الوظائف . ويرى بعض البلاغيين(٣٨) أنه يمكن الاستغناء عن التعقيد ، لأن الضعف قد يؤدي إليه ، لكن هذا غير صحيح ، لأن التعقيد قد ينتج عن ضعف التأليف وغيره .

وضعف التأليف أحد الأسباب التي تخل بالمعنى المتعلق بالوظائف ، فالمعنى الوظيفي يعتمد على ما تؤديه الأصوات وما تؤديه الصيغ الصرفية ، وما ينتج عن مراعاة قواعد النحو ، فالأصوات اللغوية ، والصرف ، والنحو ، تتضافر لأداء

---

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٣٦ .
(٣٨) شروح التلخيص ص ١٠٥ .

المعنى بحكم وظائفها ، والخلل أو الضعف الذى يصيب قواعد النحو والصرف يؤدى بدوره إلى إفساد المعنى .

وهذا لايعنى أن المعنى أو الدلالة تقوم فقط على المعنى الذى تؤديه الأصوات وقواعد النحو والصرف ، ولكن هناك معان أخرى تأتى بعد ذلك ، ولها بواعثها المختلفة .. ونعنى بذلك السياق أو القرائن أو المقام .

لكن قد يقبل النقاد بعض التجاوزات فى الشعر عندما لاتؤدى تلك التجاوزات إلى الخلل فى المعنى ، وذلك ماعرف بالضرورات الشعرية ، لكن بعض تلك الضرورات قد لقى رفضا من النقاد ، وقد صنف النقاد الضرورات إلى مقبول وغير مقبول . وقد فصلنا القول فيما سبق عن ذلك .

وخلاصة القول : أن ضعف التأليف يتناسب مع الدلالات أو المعانى تناسبا عكسيا ، أى كلما خلت التآليف من الضعف ازدادت المعانى وضوحا وتحديداً ، وكلما كثر الضعف غمض المعنى وأدى إلى الفساد .

٢ ـ علاقة التعقيد بعلم الدلالة :

ونحن هنا لانفرق فى التعقيد بين ماهو بسبب الخلل فى نظم الألفاظ ، وهو مايعرف بالتعقيد اللفظى ، وبين مايكون بسبب الانتقال من معنى إلى آخر ، وهو ما قد عرف بالتعقيد المعنوى ، فلقد فصل البلاغيون بينهما ، وخصوا أحدهما باللفظ والآخر بالمعنى .

لكننا نرى فى الحقيقة أنهما يختصان بالمعنى ، ويصفهما الشيخ بهاء الدين السبكى وصفا دقيقا عندما يقول : « ... الأول أوقع فى الجهل البسيط ، وهو عدم الفهم ، والثانى أوقع فى الجهل المركب ، وهو فهم الشىء على غير ماهو عليه »[٣٩] .

---

(٣٩) شروح التلخيص ص ١٠٨ .

فعدم الفهم ، وفهم الشيء على غير ما هو عليه ، أمران يرجعان إلى غموض المعنى ، والمعنى قد غمض حتى لم يستطع فهمه بسبب نظم الألفاظ المخالف للأصل، كالتقديم ،والتأخير ،أو الاضمار ،أو غير ذلك بغير قرينة ظاهرة باللفظ أو المعنى، وذلك مثل بيت الفرزدق الذى استشهد به البلاغيون :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

أما فهم الشيء على غير ما هو عليه ، فقد نتج عن صعوبة انتقال الذهن من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر ، وذلك لعدم الربط بين المعنى الظاهر والمعنى المراد ، أو لمخالفة العادة أو المألوف لدى الناس ، كل ذلك وغيره يؤدى إلى سوء الفهم ،أو فهم الشيء على غير ما هو عليه ، مما قد عرف بالتعقيد المعنوى ، ولقد توقف البلاغيون عند بيت للعباس بن الأحنف ليستدلوا به على التعقيد المعنوى وهو :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وفى هذا البيت نموذج لفهم الشيء على غير ما هو عليه ، وذلك أنه انتقل من المعنى الظاهر ،وهو جمود العين ،إلى السرور بالاجتماع ،وجمود العين لا يكون كناية عن التلاقى والسرور به ، وإنما هو كناية عن البخل بالبكاء عندما يراد منها البكاء ، وهذا هو المألوف لدى الذوق ، أما أن يكنى بجمود العين عن السرور بالتلاقى فهو مخالف للعادة ، قال أبو العطاء يرثى ابن هبيرة :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجارى دمعها لجمود

فالتعقيد بنوعيه اللفظى والمعنوى لا بد أن يخلص الكلام منه حتى يوصف بالفصاحة ،وحتى يسهل الفهم ويتضح المعنى المراد ، فالعلاقة بين التعقيد وعلم الدلالة تشبه العلاقة بينه وبين ضعف التأليف : أى علاقة عكسية .

وتوضيح ذلك أن التعقيد الذى اشترط البلاغيون الخلوص منه حتى يوصف

الكلام بالفصاحة — يتحقق فى أحد جوانبه بالانتقال من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر ، وذلك كما رأينا فى بيت العباس بن الأحنف عندما أراد أن ينتقل من المعنى الحقيقى للجمود المتعلق بالدموع — إلى معنى آخر يريد تحقيقه بالكناية ، وهو السرور المترتب على التلاقى . لكن الشاعر قد عقّد بهذه الطريقة لأن العادة قد جرت على جعل الجمود كناية عن البخل . فالتعقيد له صلة فى أحد جوانبه بعلم الدلالة أو دراسة المعنى . وهذه العلاقة تتمثل فى الانتقال من معنى إلى آخر بطريقة تؤدى إلى الإحالة والفساد .

والانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى لا بد أن يصطحب بالقرائن التى توضحه ، وتمنع من إيراد المعنى الأصلى ، والعجز عن إيراد القرائن المناسبة يؤدى بدوره إلى التعقيد .

لكن فصاحة الكلام لا تقتصر العلاقة بينها وبين علم الدلالة على ضعف التأليف ، والتعقيد بنوعيه ، فتوجد قضايا دلالية أخرى لها علاقات وثيقة بفصاحة الكلام ، لا نستمدها من تعريف البلاغيين القدماء للفصاحة ، ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الفصاحة أو أى جانب منها عن المعنى ، فقد يتصور أن بعض جوانب الفصاحة قاصرة على اللفظ ، لكننا فى الحقيقة لا نستطيع أن نفصل اللفظ عن المعنى ، وينقل السبكى عن عبد اللطيف البغدادى عبارة قد استحسنها ونقلها من قوانين البلاغة ، وهى(٤٠) :

البلاغة شىء يبتدى من المعنى ، وينتهى إلى اللفظ .

والفصاحة شىء يبتدىء من اللفظ ، وينتهى إلى المعنى .

وفى نفس الوقت الذى نقرر فيه استحالة فصل اللفظ عن المعنى ، لا نذهب إلى تفضيل أحدهما على الآخر ، ولا ندخل فى جدل بلا جدوى ، لأن الذهاب إلى تفضيل أحدهما على الآخر لا فائدة منه فى نظرنا ؛ لأننا لا نستطيع أن نتصور

---

(٤٠) شروح التلخيص ص ١٣٦ .

لفظا بدون معنى ، لكن المعانى قد تتخذ وسائل أو أدوات أخرى كالإشارة مثلا .

ومن القضايا المتعلقة بفصاحة الكلام أيضا :

٣ ـ علاقة فصاحة الكلام بالحقيقة والمجاز :

ما دمنا قد سلمنا باستحالة فصل الكلام عن معناه ، فإن دراسة العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة تنحو بنا إلى بحث العلاقة بين فصاحة الكلام وما يتصل بالمعنى الحقيقى والمعنى المجازى .

لقد كثر الحديث عند القدماء والمحدثين عن الحقيقة والمجاز ، ويرى بعضهم أن الحقيقة هى أكثر الكلام ، وأكثر آى القرآن وشعر العرب على هذا ، وهذا هو رأى ابن فارس[٤١] . لكن ابن جنى يرى عكس ذلك ، فأكثر اللغة عنده مجاز لا حقيقة[٤٢] ، ويذكر السيوطى أن القاضى تاج الدين السبكى يقول فى شرح منهاج الأصول : « الفرض أن الأصل الحقيقة ، والمجاز خلاف الأصل ، فإذا دار اللفظ بين احتمال المجاز ، واحتمال الحقيقة ، فاحتمال الحقيقة أرجح »[٤٣] . أما أبو اسحاق الإسفرايينى فإنه يرى أنه « لا مجاز فى لغة العرب »[٤٤] ، كما كان من رأى جماعة أن اللفظ قد لا يكون حقيقة ولا مجازا ، لكن جماعة أخرى ترى أن اللفظ قد يكون حقيقة ومجازا فى لفظ واحد ، وذلك كاللفظ الموضوع فى اللغة لمعنى ، وفى الشرع أو العرف لمعنى آخر ، فيكون استعماله فى أحد المعنيين حقيقة بالنسبة إلى ذلك الوضع ، مجازا بالنسبة إلى الوضع الآخر[٤٥] .

---

(٤١) الصاحبى فى فقه اللغة ص ٢١٥ ، والمزهر للسيوطى ص ٣٥٥ .
(٤٢) انظر الخصائص ، المزهر ص ٣٥٧ .
(٤٣) المزهر جـ ١ ص ٣٦١ .
(٤٤) المزهـــر جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٤٥) المزهـــر جـ ١ ص ٣٦٧ .

وقضايا الحقيقة والمجاز كثيرة ومتسعة ، ونحن لانرى أننا فى مقام تفصيل تلك الموضوعات ، وإنما يهمنا أن نوضح مدى ارتباط فصاحة الكلام بالحقيقة المجاز

ودراسة الحقيقة والمجاز يساهم فيهم النقد الأدبى ، واللغة ، فكلاهما يرى أن هذا النوع من الدراسة من موضوعاته أو مجالاته ، لكن المجاز يدخل فى اللغة أكثر مما يدخل فى النقد والبلاغة ، وذلك طبقا للتصنيفات القديمة ، وإذا سلكنا منهج الباحث اللغوى فاننا لانفضل أحدهما على الآخر فلا نقول : إن المجاز أجمل من الحقيقة ، لأن الحكم بالجمال والقبح من مجالات النقد ، لكن الذى يعنينا ونحن نسلك هذا المسلك ، الناحية الوصفية التطورية ، فالمجاز ظاهرة من ظواهر تطور اللغة ، وهو تطور من ناحية الدلالة أو المعنى ، كما أنه عامل من عوامل النمو اللغوى للألفاظ .

والحقيقة والمجاز معنا هما ليس ثابتا ، لأن الألفاظ ليست مقيدة جامدة ، لذلك لانستطيع أن نتصور أن هناك حدا فاصلا بين الحقيقة والمجاز يفصل أحدهما عن الآخر ، لأن اللغة تنمو وتتطور كما ينمو الكائن الحى ، وخلال نموها عبر العصور والحضارات ينتقل مايعرف بالحقيقة بين الناس إلى المجاز ، بل قد يتحول المجاز إلى حقيقة ؛ إذا أهمل المعنى الأصلى للفظ ، ثم قد يأتى وقت بعد ذلك لينتقل إلى مجاز آخر .

فالحقيقة والمجاز ليسا تصورا ثابتا دائما ، بل يطرأ عليهما التغير بقدر ما يطرأ على أصحابها من تطور أو تغير ، ويرتبط التحول إلى المجازية بالبيئة الثقافية للأفراد ارتباطا كبيرا ، لأن الثقافة تمكن أصحابها من تصور المعانى المجردة وتذوقها ، وتدفعهم إلى رواجها بينهم ، ذلك الرواج الذى يهيء للمعنى المجازى بيئة صالحة للحياة والنمو ، فالتقبل الذى تصادفه المعانى المجازية من المتكلمين — هو العامل الأساسى فى نظرنا للانتقال من الحقيقة إلى المجاز ، لأننا لو تصورنا أن شخصا استعمل لفظة ما استعمالا يخالف مألها من دلالة عند

الناس ،ولم يفهم الناس مايهدف اليه ، أو لم يشعروا بطرافة فى استعمالها الجديد، فإننا نرى نتيجة لذلك أن ذلك الاستعمال الجديد ميت فى مهده.أما إذا صادفت تلك اللفظة فهما وتذوقا من الناس، وأحسوا بطرافة دلالتها الجديدة فإنها تعلق بألسنة المعجبين بها ، ويكتب لها الحياة فى تلك البيئة . وقد تنتقل تلك اللفظة بمعناها الجديد إلى بيئة أخرى ، وإلى عصر آخر محتفظة بما لها من دلالة ، وقد يعتريها ما يفقدها طرافتها وجدتها ، وربما تصاب بالذبول والموات .

ولكن تلك اللفظة التى فقدت مالها من طرافة ، وأصابها الذبول والموات ، قد ينتشلها أديب بارع من خضم الابتذال والنسيان والموات ،ويجلوها من جديد بوضعه إياها فى استعمال طريف آخر .

واستعمالات الأدباء النابهين تظل متجددة قائمة فى أذهان الناس عصورا متتالية ، طالما أن تلك الاستعمالات المجازية متصفة بالتفرد والابتكار ، وتصبح من العلامات المعروفة بهم ، أو التى يعرفون بها . وتصبح لشهرتها مصونة من السطو عليها ، لأنها ذائعة بين النقاد والأدباء ، بخصوصة لمبدعيها ، وهذا يخالف الخيالات التى أصبحت عامة مشاعة للجميع ، لايعاقب مستعملها بتهمة السرقة ، كوصف الكريم بالبحر ، والشعر بالليل ، والنساء بالظباء ، والخدود بالتفاح ، والشجاع بالأسد . ومما لم يستبحه ويستولى عليه الأدباء والشعراء قول عنترة فى وصف الذباب :

جادت عليها كل عين ثرّة ... فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغنى وحده ... هزجا كفعل الشارب المترنم

غردا يحك ذراعه بذراعه ... فعل المكبّ على الزناد الأجذم

ويعلق الجاحظ على وصف عنترة للذباب قائلا : . . . فوصف الذباب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى ،فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ،

يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة »[٤٦] ولقد عرض له بعض الشعراء المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى من اضطرابه فيه ، وأنه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر .

ولسنا فى معرض الحديث عن السرقات ، وإنما وددنا أن نشير إلى أن بعض الاستعمالات المجازية والخيالية عامة تظل باقية ، لا يعدو عليها الذبول ، وتقاوم الموات والفناء .

والانتقال مما يعتقد أنه حقيقة إلى المجاز — كما ذكرنا — مرتبط بارتقاء الفكر عند الإنسان ، فكثير من الألفاظ التى تطلق على مسميات معنوية يرجعها اللغويون إلى أسماء محسوسات ، وهذه الأسماء أو الألفاظ المجازية ترتبط مع الأصل المحسوس الذى انتقلت منه بشىء من المشابهة ، ولا مانع من إيراد بعض الألفاظ التى تتضح فيها هذه الظاهرة ، مثل كلمة :

العقل : مأخوذ من الحبل الذى كانت تربط به الدابة حتى لا تنطلق جامحة ، وكان يرتبط بالبعير أكثر من غيره ، ثم نقل العقل من معناه المادى إلى معنى مجرد هو القوة التى تتحكم فى توجيه الحواس فلا تجمح .

الشرف : وأصله الارتفاع للمكان العالى مثل قول الشاعر فى رثاء ابنه[٤٧] .

هَوَى ابْنِى من عُلاَ شَرَفٍ يَهُولُ عِقَابُهُ صَعَدُهْ
هوى من رأس مَرْقَبَةٍ فزَلَّتْ رِجلُهُ ويَدُهْ

فالشرف هنا : المكان العالى الذى سقط من فوقه ذلك الغلام . لكنه قد انتقل

---

(٤٦) الحيوان جـ ٣ ص ٣١١ ، انظر رسالة الماجستير التى تقدمنا بها الى آداب القاهرة سنة ١٩٧٠ وعنوانها « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ فى البيان والتبيين والحيوان » .

(٤٧) ديوان الحماسة جـ ١ لأبى تمام ص ٣٧٨ .

بعد ذلك إلى المعنى المجرد ، وهو الصفة التى تدل على أن صاحبها فى منزلة عالية النسب والأخلاق .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا مجموعة من الألفاظ التى قد ربطها بأصلها المادى القديم فى اللغات السامية القديمة من ذلك كلمة[٤٨] .

جهنم : يرجعها الدكتور ظاظا إلى لفظتين ساميتين قديمتين هما : (جى) (بالكسرة المالة) ومعناها الوادى ، و (هِنمْ) (بكسر الهاء وضم النون المشددة) وهو اسم علم لقبيلة قديمة كانت تعيش فى فلسطين قبل نزول العبريين اليها ، وكانوا يعبدون إلها اسمه (ملك) (بضمتين) ، وكان من طقوسهم أن يقدموا لهذا الإله قرابين من الأطفال الصغار يذبحونهم ويحرقونهم ، وكان لهم واد فى جنوب مدينة القدس يقومون فيه بهذه الطقوس ، وكان يسمى باللغة الكنعانية والعبرية (جنى بنى هِنمْ) أو (جى هِنمْ) ، وكانت صورته فى الأذهان هى صورة ازهاق الأرواح ، وإراقة الدماء ، والنيران الملتهبة والجثث المحترقة ، فاستعيرت هذه الصورة وأصبحت (جهنم) علما على دار العذاب فى الآخرة حيث يحترق بنارها كل من حاق بغضب الله .

ونختار كلمة أخرى من الكلمات التى أوردها الدكتور ظاظا هى :

المروءة : أصلها من كلمة المرء ، ومعناها الرجل المكتمل القوى الحاوى لأبرز المميزات التى يمتاز بها هذا الجنس ، فبينما كلمة الرجل بمعناها الأصلى لا تدل إلا على الشخص الذى يمشى على رجلين لا على أربع ، كانت لفظة المرء تدل ، زيادة على ذلك ، على ما فى الرجل من صفات تدعو لاحترامه ، كالقوة والهمة والشعور بالواجب ، وقد استعملت فى لغات سامية أخرى كالآرامية والسريانية بمعنى السيد أو الرجل العظيم ، وكانت تنطق (مار) فيقال (مار جرجس) ،

---

(٤٨) اللسان والانسان ص ٩٣ .

(مار مينا) ، (مار إلياس) .. ألخ . ومن كلمة مرء فى اللغة العربية اشتقت كلمة مروءة لمجموع صفات الرجولة التى تمثل السيادة .

ومع الزمن وجدنا كلمة على نفس النمط هى كلمة :

الأنوثة : التى تستعمل حديثا لمجموع الصفات التى تميز الأنثى من البشر من الرقة والجاذبية والأمومة .. ألخ .

وهذا موجود فى عديد من اللغات الأوربية فكلمة Virtue الانجليزية أو Vertu الفرنسية تعنى المروءة ، وهى مشتقة من اللفظ اللاتينى Vir الذى معناه الرجل المستكمل الرجولة ، أى المرء .

أما الألفاظ التى تنتقل عن طريق التوسع المجازى والاستعارى فهى كثيرة ولاحصر لها وهى تشترك مع اللفظة المنقولة منها فى وجه شبه ، وكتب البلاغة وفقه اللغة مليئة بهذا اللون من الألفاظ التى انتقلت إلى دلالات مجازية ، سواء وحدها أم بالتركيب . ومن هذه التوسعات التى تقوم على المشابهة :

استعمال أجزاء الجسم للدلالة على أشياء أخرى محسوسة مثل : السن للطرف المدبب من القلم الذى يكتب به ، أو لسلاح كالرمح أو السهم ، ومثل رجل الكرسى ، ويد المكنسة ، وأضلاع السفينة ، ونجوم المسرح ، وأذن الكوز ، ومثل شفا الجرف ، والرؤيا فى المنام .

كما نأخذ من النباتات وأجزائها بعض التعبيرات مثل : جذر الضرس ، وجذع الجسم ، بصلة الرأس ، قشر الشعر . ويقول مذيع مباراة كرة القدم : أعطى له فلان الكرة مقشرة .

ومثل اطلاق الصفات بالحواس الخمس مثل : بكاء مر ، صوت حلو ، صوت ناعم ، أسود القلب ، أبيض القلب ، عطر الذكرى ، أغانى الحياة .

وهناك مجازات أخرى لاتقوم العلاقة بينها وبين معناها الأصلى على المشابهة وإنما تقوم على علاقات أخرى مثل :

١ ــ إطلاق الخاص وإرادة العام مثل : خزن البخيل الذهب والفضة والمراد المال على العموم .

٢ ــ وعكس ذلك وهو إطلاق العام وإرادة الخاص مثل :(أهل الكتاب) والمقصود الكتاب المقدس .

٣ ــ إطلاق المفرد وإرادة الجمع مثل : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، والمقصود كل اليتامى والسائلين .

٤ ــ إطلاق الجمع وإرادة المفرد أو المثنى مثل : الحمد لله رب العالمين ، وشركة المياه ، وعيون الحسناء ساحرة .

٥ ــ إطلاق الجزء وإرادة الكل مثل :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومثل : اجتمعت الرءوس المفكرة ، والأيدى العاملة .

٦ ــ إطلاق الكل وإرادة الجزء كقولنا : الدنيا حر ، والمقصود المدينة التى نعيش بها .

٧ ــ استعمال العلم بمعنى اسم الجنس مثل : الكشمير ، البرطمان ، هذا مسيلمة ، هذا عرقوب .

٨ ــ ــ إطلاق اسم الجنس على العلم مثل : النجاشى ، فرعون ، قيصر ، كسرى .

٩ ــ إطلاق السبب على المسبب مثل : فلان عنده برد .

١٠ ــ إطلاق المسبب على السبب مثل هذا الشخص مرستان .

١١ ــ إطلاق المحل على الحال فيه : شربت كأساً ، هذه إهانة للعرش .

١٢ ــ إطلاق الحال على المحل مثل : زرت الرسول .

وبعد ،فالمجاز والحقيقة يرتبطان ارتباطا وثيقا بفصاحة الكلام ،لأن الكلام الفصيح لا بد أن يؤدى معنى ما ، حقيقة كان أو مجازا ، وعلى قدر وضوح المعنى أو غموضه ، وعمقه أو سطحيته ، وارتباطه بالمادة أو الخيال — على قدر هذا وغيره تقاس فصاحة الكلام .

ويجب أن نوضح أن الدلالة ليست ثابتة دائما ، كما أن الناس لا يقيسونها بمقياس ثابت ، بل إن المعنى يخضع لعوامل كثيرة تجعله نسبياً فى حالات متغايرة ، كما أنه يتعرض للتغير ،وقد يكون التغير نحو التطور أو نحو الانحطاط أو نحو التخصيص ، أو التعميم أو قد يكون التحول الدلالى عكسياً .

وهذا التحول بأنواعه المختلفة لا يحدث فجأة ، بل تتدخل عوامل اجتماعية كثيرة أو عقائدية ، أو سياسية لتوجيه المعنى ، وقد اجتهد اللغويون لمعرفة اتجاهات التحول الدلالى ، وقد لخص أستاذنا المرحوم الدكتور السعران ما أحصاه اللغويون من أنواع رئيسية تصدق على جميع اللغات[٤٩] وهذه الأنواع يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ — التغير الخافض أو الانحطاطى Pejorative Change

وهذا النوع من التغير فى المعنى يصدق على الكلمات التى كانت دلالتها تعد فى نظر الجماعة (نبيلة) و (رفيعة) و (قوية) نسبياً ثم تحولت الدلالات فصارت دون ذلك مرتبة ،أو أصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة،مثل : الكلمات الدائرة حول الجنس ، وحول الزهو الطبقى والألقاب ، والملابس الداخلية ، وكل ما يثير اشمئزازا ونفورا .

٢ — التغير المتسامى Meliorative Change

ويطلق هذا النوع على الكلمات التى كانت تشير إلى معان (هينة) أو (وضيعة) أو (ضعيفة) نسبيا ثم صارت تدل فى نظر الجماعة الكلامية على معان (أرفع) أو (أشرف) أو (أقوى) مثل كلمة (مارشال (Marshal)

(٤٩) علم اللغة ص ٣٠٥ ـ ص ٣١١ .

الانجليزية كانت تعنى فى وقت من الأوقات الغلام الذى يتعهد الأفراس أى (صبى اسطبل) . ومن ذلك أيضا كلمة (Angel) التى كانت تدل على الرسول الذى يشبه موزع البريد فى أيامنا ، ثم رفع الفقهاء هذا اللفظ باستعماله للدلالة على الكائن المتوسط بين العقل الإلهى والعقل الانسانى ، ومثل كلمة (بيت) الذى كان يصنع من الشّعر ثم صار يعنى المسكن الضخم .

٣ ــ التغير نحو التخصيص أو تخصيص المعنى

Narrowing (Restriction) of Meaning

مثل الكلمات التى كانت تدل على أشياء عامة ثم أصبحت تدل على شىء خاص مثل كلمة (Meat) التى تعنى الآن فى الانجليزية (اللحم) وكانت دلالتها فيما مضى هى (الطعام) ، وكانت كلمة الفاكهة فى العربية تدل على (كل الثمار) ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالتفاح والعنب والموز والخوخ .

٤ ــ التغير نحو التعميم أو تعميم المعنى Expansion of Meaning

قد تصاب الكلمة بالتعميم وهو ضد التخصيص مثل كلمة الورد التى تطلق على الورد الأحمر ، لكن الناس يطلقونها على كل أنواع الزهور . وكلمة Manuscript (مخطوط باليد) غالبا ما يتسع معناها ليشمل المادة المكتوبة على الآلة الكاتبة . ولو أن ما يكتب بالآلة الكاتبة يطلق عليه كلمة أدق وهى : (Typescript) .

٥ ــ التحول نحو المعانى المضادة :

وهذا معروف فى لغتنا باسم الأضداد مثل (الجون) تطلق على الأسود وعلى الأبيض كذلك ، ومثل (بان) بمعنى فارق وبعد ، وبمعنى ظهر واتضح .

ومن الملاحظة أن هذه الاتجاهات التى ظهر فيها تغير فى الدلالة أو المعنى قد لاحظها اللغويون العرب قديما ، وقد أشرنا إليها فيما سبق ذكره عن التوسعات المجازية ، مما يؤكد أن اللغويين العرب قد أدركوا هذه الظاهرة قبل غيرهم من اللغويين .

وهذا التحول الدلالى يمثل صعوبة أمام المترجمين ، وخاصة الذين يقومون بترجمة الأعمال الأدبية ، ولقد تنبه إلى صعوبة الترجمة منذ أكثر من ألف عام أبو عثمان الجاحظ الذى أدرك أن ترجمة الشعر تفقده كثيرا من مقوماته الفنية ويقول فى ذلك :

« . . والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل تقطّع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع العجب ، ولا الكلام المنثور ، والكلام المنثور المستبدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذى تحوّل من موزون الشعر . ، من أجل ذلك وضع الجاحظ للمترجمين شروطا يجب أن تتوافر عندهم حتى يتمكنوا من الترجمة « . . فلابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة ، ويتبقى أن يكون أعلم الناس ، باللغة المنقولة ، والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما . » (٥٠)

والجاحظ يتصور أن اللسان لا يتمكن من لغتين معا بدرجة واحدة ، وأن إتقان إحداهما يكون على حساب الأخرى ، كما يتصور أن المترجم مهما بلغت درجة إتقانه للغة اجنبية فانه لا يفى الترجمة حقها « .. فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرة ، وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفع مثل أرسطوطا ليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون . .(٥١) والجاحظ بهذا يبين صعوبة الترجمة .

---

(٥٠) الحيوان ج ١ ص ٧٥ ــ ص ٧٦ .
(٥١) الحيوان ج ١ ص ٧٥ ــ ص ٧٦ .

فنقل المعنى من لغة إلى أخرى أمر لا يتاح بسهولة ، كما أنه لا يتصف بالكمال وخاصة تلك المعانى التى حدث لها نقل من الحقيقة أو من المعنى الأصلى إلى المجاز . والذى ينظر فى ترجمات الكتب المقدسة يستطيع أن يرى بسهولة مدى اختلاف المترجمين للنص الواحد أو حتى اللفظة ، كما حدث فى ترجمة لفظ الجلالة (الله) عند ترجمة القرآن الكريم ، بل إن التفسيرات التى تدور حول النص الواحد تختلف باختلاف الثقافات والبيئات المختلفة والمناهج التى يسلكها علماء التفسير .

وقد ترجع صعوبة الترجمة إلى ما قد يصيب اللغة من توسعات وتضخم عن طريق بعض الظواهر الأخرى ، مثل (الترادف) الذى يعنى وجود لفظين أو أكثر لمعنى واحد ، مثل ما يروى من أسماء الخمر والسيف والأسد والحجر وغير ذلك . وبصرف النظر — الآن — عما يقال فى الترادف أو تلك الألفاظ. ويشبه (الترادف) فى هذا الأثر ما يعرف (بالمشترك) أو (الاشتراك) وهو يعتمد على وجود معنيين أو أكثر للفظ واحد مثل كلمة (العين) التى أورد اللغويون لها أكثر من عشر معان . ومن ذلك أيضا ما يعرف (بالتضاد) الذى يقوم على اشتراك معنيين متناقضين فى لفظ واحد ، مثل كلمة (الجون) التى ذكرناها آنفا والتى تطلق على الأسود وعلى الأبيض .

فالمجاز والترادف والاشتراك والتضاد عوامل تؤدى إلى نقل المعنى إلى معان أخرى ، وذلك النقل يؤدى بدوره إلى صعوبة نقل المعانى من لغة إلى أخرى عن طريق الترجمة أو التلخيص أو غير ذلك .

وهذه العوامل التى أدت إلى التوسع فى المعنى بنقله إلى معان أخرى سنتناولها إن شاء الله ، فيما سنعقده عن عيوب الفصاحة بشىء من التفصيل .

ولا يسعنا الآن إلا أن ننتقل إلى ما يسميه البلاغيون (فصاحة المتكلم) لنوضح العلاقة بينها وبين علم الدلالة أو دراسة المعنى .

ثالثا : علاقة فصاحة المتكلم بعلم الدلالة

رأينا فيما سبق ما يمكن أن يؤديه الفرد من ألوان صوتية تؤثر فى المعنى ، ولقد ذكرنا فيما سبق أن للفرد أثرا يتضح عند الإلقاء أو الأداء ، فجهارة المتكلم لها دورها الكبير فى وضوح المعنى لأن الصوت الواضح لدى المتكلمين يساعد على تحقيق الاستماع الكامل والفهم الكامل ، والعكس صحيح لأن عدم وضوح اللفظ يؤدى إلى عدم وضوح معناه فى ذهن سامعه .

وإذا سلمنا بأن الهدف المطلوب هو وضوح الدلالة فى ذهن السامع ؛ فإن المتكلم الفصيح يتحتم عليه أن يكون حذرا ودقيقا ومحايدا ، لأن عدم حيدته قد تؤثر فى تغيير الدلالة لدى السامعين . وهناك عوامل أخرى تقع على عاتق المتكلم ؛ هى مراعاة النبر الذى قد يؤدى تغييره إلى تغيير الدلالة ، وكذلك مايعرف باسم (التنغيم) قد يؤثر أيضاً فى المعنى .

وفصاحة المتكلم تتعلق بعوامل أهمها القرائن المحيطة به ، والمؤثرة فيه عند الكلام ، وهذه القرائن قد تكمن فى قدراته الخاصة التى يتمتع بها ؛ كطريقته فى النطق أو قوة شخصيته ، أو مكانته بين سامعيه ، كما قد تتعلق هذه القرائن بمقتضيات الأحوال أو المقام والمقال ، وهذا لايخص الفصاحة وحدها وإنما يتعلق بالبلاغة أيضاً .

ولقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، ونحن نخشى الاستطراد فى الحديث ، والتكرار المفسد ، كما أننا سنتناول عيوب الفصاحة فيما سيأتى إن شاء الله ، وأكثر هذه العيوب تتعلق بالمتكلم . أى أننا سنتناول الجانب السلبى فى فصاحة المتكلم فى الفصل القادم ، كما أننا تناولنا الجانب الايجابى منه عندما تناولنا فصاحة المتكلم فيما سبق .

وخلاصة رأينا أن علم المعنى يرتبط مع فصاحة المتكلم بروابط وثيقة لأن المتكلم يستطيع أن يؤدى معناه بطريقة قد تزيده وضوحا وجلاء ، وقد تنقصه وتزيده غموضا وإبهاما ، بل إن المتكلم يضيف إلى المعنى أشياء كثيرة تتعلق بالمقام الذى يتحدث فيه ، وبقدرة السامعين على إدراك المعانى الجانبية ، وتدور فصاحة المتكلم فى أكثر أحوالها حول الخطيب ، لأن أكثر مقتضيات الأحوال تتعلق بأدائه ،ولأن قدرته على الأداء ومدى تأثيره يرجع إلى إمكاناته الخاصة .

ولنا عودة إلى المتكلم فى الفصل القادم — إن شاء الله .

obeikandl.com